المختصر في كتاب الاسبوع رقم 169

مستقبل وهم

تأليف: دكتور سيغموند فرويد

ترجمة: د. جورج طرابيشي

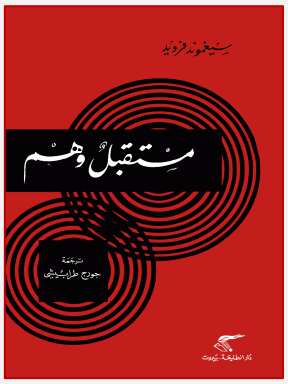

تلخيص: أ. م. د. سند محمد حيدر - أستاذ علم النفس الطبي المساعد.
قسم العلوم السلوكية/ كلية الطب والعلوم الصحية/ جامعة عدن - اليمن.
تحرير: أ. د. معن عبدالباري قاسم صالح - أستاذ علم النفس السريري (العيادي)
المشارك قسم الطب النفسي/ كلية الطب/ جامعة الامام عبد الرحمن بن فيصل (الدمام سابقا).
Maanslaeh62@yahoo.com

استهلال التلخيص: الامانة العلمية التي التزمنا بها في " شبكة العلوم النفسية العربية "، تحتم علينا عرض افكار فرويد حول الدين، كما جاءت في هذا الكتاب، اتفقنا او اختلفنا معها... لكنا نعتقد ان نظرته للدين تنطلق من خلفية ذهنية، وان كانت على اطلاع باليهودية والمسيحية، الا انها تعكس جهلا عميقا بالإسلام (ليس مجال نقدها هذا المقام)

د. جمال التركي

رئيس مؤسسة العلوم النفسية العربية

*** *** ***

يصادف يوم 26سبتمبر الذكرى السنوية لوفاة سيجموند فرويد، وتقديرا لاسهامات هذا العالم الجليل في حقل العلوم النفسية وتطبيقاتها السريرية، سواء إتفقنا ام إختلفنا معه، راينا من الواجب بمكان التذكير بدوره من خلال قراءة متواضعة موضوعية غير متحيزة وملخصة لبعض من أعماله الاختصاصية التاريخية المتميزة.

يصادف يوم 26سبتمبر الذكرى السنوية لوفاة سيجموند فرويد، وتقديرا لاسهامات هذا العالم الجليل في حقل العلوم النفسية وتطبيقاتها السريرية، سواء إتفقنا ام إختلفنا معه، راينا من الواجب بمكان التذكير بدوره من خلال قراءة متواضعة موضوعية غير متحيزة وملخصة لبعض من أعماله الاختصاصية التاريخية المتميزة

سيغموند فرويد (1856—

نبذة مختصرة عن المؤلف:

سيغموند فرويد (1856—1939) هو طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي ومفكر حر يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي. وهو طبيب الأعصاب النمساوي الذي أسس مدرسة التحليل النفسي وعلم النفس الحديث. اشتهر فرويد بنظريات العقل واللاواعي، وآلية الدفاع عن القمع وخلق الممارسة السريرية في التحليل النفسي لعلاج الأمراض النفسية عن طريق الحوار بين المريض والمحلل النفسي. كما اشتهر بتقنية إعادة تحديد الرغبة الجنسية والطاقة التحفيزية الأولية للحياة البشرية، فضلًا عن التقنيات العلاجية، بما في ذلك استخدام طريقة تكوين الجمعيات وحلقات العلاج النفسي، ونظريته من التحول في العلاقة العلاجية، وتفسير الأحلام كمصادر للنظرة الثاقبة عن رغبات اللاوعي.

نبذة مختصرة عن المترجم:

من مواليد مدينة حلب في سوريا عام 1939، يحمل الإجازة باللغة العربية والماجستير بالتربية من جامعة دمشق. عمل مديراً لإذاعة دمشق، ورئيساً لتحرير مجلة دراسات عربية، ومحرراً رئيسياً لمجلة الوحدة. تميز بكثرة ترجماته ومؤلفاته حيث ترجم لفرويد وهيغل وسارتر وبرهييه وغارودي وسيمون دي بوفوار وآخرين. بلغت ترجماته ما يزيد عن مئتي كتاب في الفلسفة،والأيديولوجيا،والتحليل النفسي، والرواية، له مؤلفات هامة في الماركسية والنظرية القومية وفي النقد الأدبي للرواية العربية التي كان سباقاً في اللغة العربية إلى تطبيق مناهج التحليل النفسي عليها.

صدرت الطبعة الأولى– حزيران (يونيو) 1974، الطبعة الثانية– كانون الثاني (يناير) 1979، الطبعة الثالثة– حزيران (يونيو)1981، والطبعة الرابعة– آذار (مارس) 1998من دار الطليعة للطباعة والنشر– بيروت،عدد صفحات الكتاب 82 صفحة. أحتوى الكتاب في متنه على الفصول التالية:

تقديم

1– حين يكون المرء قد عاش طويلا في جو ثقافة بعينها.

2– لقد انزلقنا، دون قصد، من الاقتصادي إلى السيكولوجي.

3– فيم تكمن القيمة الخاصة للأفكار الدينية؟

4– إن بحثا يأخذ مونولوج متواصل لا يخلو البتة من أخطار.

5– لنتابع الآن بحثنا: ما الدلالة السيكولوجية للأفكار الدينية، وفي أي باب يمكننا تصنيفها؟

6– أعتقد أنه قد تم الاعداد اعدادا كافيا للإجابة على ذينك السؤالين.

7– بمجرد تسليمنا بكون المذاهب الدينية أوهاما.

8– يحق لنا أن نتوقع أن تنفيذ المشروع الأخير هذا لن يلاقي صعوبات كأداء.

9– أنك تبيح لنفسك تناقضات يصعب التوفيق بينها.

10– ألا كم يبدو ذلك رائعا!

تقديم ص 5- 6

أشار المترجم عند تقديمه لهذا الكتاب، أن نظرية التحليل النفسي بمجملها قوبلت في البداية، لاقتحامها عالم الجنس المحرم، بعداء شديد آنا، وبتحفظ وتشكيك آنا آخر، من قبل "كلاب حراسة" الأيديولوجيا الرجعية والمحافظة في أوروبا أولا، ثم في العالم. ولكن نجاح التحليل النفسي في أن يفرض نفسه كعلم أوجد الضرورة وأتاح المجال في آن واحد لاحتواء الفرويدية ولجمها، ومن ثم دمجها في جسم الأيديولوجيا السائدة. ومما ساعد في النجاح النسبي لعملية الاقلمة أو تقليم الأظافر هذه الموقف السلبي أو المتحفظ الذي وقفه الفكر اليساري بوجه عام من المساهمة الفرويدية. ولعل فرويد نفسه ليس بريئا من كل مسئولية عن حكم النفي أو التجاهل الذي صدر بحق آخر مؤلفات حياته. فقد أقدم هو نفسه على كتابتها متهيبا، متحفظا، فجاء عرضة للأمور كثير التعاريج والتضاريس في محاولة منه لعدم استفزاز المشاعر. ولكن من حق فرويد علينا أن نضيف أنه ما كان يخشى على نفسه بقدر ما كان يخشى على قضية التحليل النفسي بوصفه علما وليدا ليس له من صلابة العود ما يؤهله لمواجهة التحديات الكبيرة. وقد أعرب فرويد في "مستقبل وهم" بالذات عن مخاوفه الشديدة من أن يتأذى مستقبل التحليل النفسي بشظايا معركة الدين أو رذاذها.

1939) هو طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي ومفكر حر يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي. وهو طبيب الأعصاب النمساوي الذي أسس مدرسة التحليل النفسي وعلم النفس الحديث

اشتهر فرويد بنظريات العقل واللاواعي، وآلية الدفاع عن القمع وخلق الممارسة السريرية في التحليل النفسي لعلاج الأمراض النفسية عن طريق الحوار بين المريض والمحلل النفسي

المترجم:
من مواليد مدينة حلب في سوريا عام 1939، يحمل الإجازة باللغة العربية والماجستير بالتربية من جامعة دمشق. عمل مديراً لإذاعة دمشق، ورئيساً لتحرير مجلة دراسات عربية، ومحرراً رئيسياً لمجلة الوحدة

صدرت الطبعة الأولى– حزيران (يونيو) 1974، الطبعة الثانية– كانون الثاني (يناير) 1979، الطبعة الثالثة– حزيران (يونيو)1981، والطبعة الرابعة– آذار (مارس) 1998من دار الطليعة للطباعة والنشر– بيروت،عدد صفحات الكتاب 82 صفحة

أشار المترجم عند تقديمه لهذا الكتاب، أن نظرية التحليل النفسي بمجملها قوبلت في البداية، لاقتحامها عالم الجنس المحرم، بعداء شديد آنا، وبتحفظ وتشكيك آنا آخر، من قبل "كلاب حراسة" الأيديولوجيا الرجعية والمحافظة في أوروبا أولا، ثم في العالم

1- حين يكون المرء قد عاش طويلا في جو ثقافة بعينها ص 7- 13

أشار المؤلف إلى أنه حين يكون المرء قد عاش طويلا في جو ثقافة بعينها، وحين يكون قد بذل قصارى جهده في أحيان كثيرة ليكتشف أصولها وطرق تطورها، لابد أن يحس ذات يوم بإغراء يدعوه إلى أن يدير ناظريه في الاتجاه المعاكس ويتساءل بينه وبين نفسه عما سيكونه المصير اللاحق لهذه الثقافة والتحولات التي لا مفر من أن تنتابها. لكنه سرعان ما يكتشف أن ثمة عوامل عدة تنتقص من قيمة مثل هذا البحث، وفي طليعة هذه العوامل قلة عدد الأشخا الذين تتوفر فيهم رؤية شمولية للنشاط الإنساني في شتى مجالاته. إن الثقافة الإنسانية– وأقصد بها كل ما أمكن للحياة البشرية أن ترتفع عن طريقة فوق الشروط الحيوانية وأن تتميز به عن حياة البهائم، وأنا أزدري أصلا كل تفريق للحضارة عن "الثقافة"– تتبدى للملاحظ بوجهين اثنين كما هو معروف. فهي تضم من جهة أولى كل المعرفة وكل المقدرة اللتين اكتسبهما بنو الإنسان ليسيطروا على قوى الطبيعة ولينتزعوا منها الخيرات القمينة بتلبية الحاجات الإنسانية، وتنطوي من الجهة الثانية على جميع الاستعدادات الضرورية لتنظيم علاقات البشر فيما بينهم، وبوجه خا لتوزيع الخيرات المتاحة.

هكذا يخالجنا انطباع بأن الحضارة هي شيء ما تفرضه على أكثرية مشاكسة أقلية عرفت كيف تضع يدها على وسائل القوة والردع. ومن السهل في هذه الحالة، على ما يبدو، التسليم بأن هذه المصاعب ليست من جوهر الحضارة بالذات، وانما هي مشروطة بعدم كمال الاشكال الثقافية التي تطورت حتى الآن. وبالفعل، ليس من الصعب تسليط الضوء على هذه العيوب والشوائب. ففي حين حققت الإنسانية تقدما متواصلا في أن يكون مثل هذا الوضع قابلا للتحقيق. وانما يبدو بالأحرى أن كل حضارة ملزمة بأن تشيد نفسها على الاكراه وعلى نكران الغرائز، وليس هناك حتى ما يجزم بأن غالبية الافراد على استعداد، فور رفع الاكراه، لتحمل مشاق الجهود الضرورية لاقتناء مصادر حيوية جديدة. ويخيل إلى أنه لابد أن نأخذ بعين الاعتبار أن كل انسان تعشش فيه ميول هدامة، وبالتالي مناهضة للاجتماع والثقافة، وإن هذه الميول قوية بما فيه الكفاية لدى عدد كبير من الأشخا لتحدد سلوكهم في المجتمع الإنساني. تتلبس هذه الواقعة السيكولوجية أهمية حاسمة حين يكون المطلوب اصدار حكم على الحضارة. فقد كان من الممكن أن يسود الاعتقاد في السابق بأن جوهر الحضارة هو تسخير الطبيعة للحصول على الموارد الحيوية، وبأن الاخطار التي تتهدد الحضارة ستتلاشى وتضمحل إذا ما تم توزيع الخيرات المنتقاة على هذا النحو توزيعا مناسبا بين البشر؛ ولكن يبدو الآن أن اللهجة تشدد على النفسي لا على المادي. وما كان للجموع أن تقبل بتحمل المشاق والتضحيات التي تقوم عليها الحضارة لولا تأثير الأشخا الذين يمكن أن تجد فيهم قدوة وأن تتخذ منهم هداة ومرشدين.ويسير كل شيء على ما يرام حين يكون هؤلاء الزعماء أصحاب رؤية سامية للضرورات الحيوية، وحين يسمون بأنفسهم إلى حد السيطرة على رغائبهم الغريزية الذاتية. لكن ثمة خطرا يظل يلوح في الأفق: فهم عن الجموع. بمختصر الكلام، هناك صفتان بشريتان من أكثر الصفات شيوعا تحولان دون إمكانية بناء أي حضارة بدون قدر معين من الاكراه: كون البشر لا يحبون العمل بالفطرة وتلقائيا، وكون الحجج والبراهين عادمة التأثير على اهوائهم. أما إذا أنشئت الأجيال الجديدة على الحب واحترام الفكر، وأما إذا أحست مبكرا بمحاسن الثقافة، فإن علاقتها بهذه الأخيرة ستكون مختلفة وسيخالجها غامر الشعور بأن هذه الثقافة إنما هي ثقافتها، وستكون على استعداد لتحمل التضحيات في سبيلها بالعمل وبنكران

نجاح التحليل النفسي في أن يفرض نفسه كعلم أوجد الضرورة وأتاح المجال في آن واحد لاحتواء الفرويدية ولجمها، ومن ثم دمجها في جسم الأيديولوجيا السائدة

من حق فرويد علينا أن نضيف أنه ما كان يخشى على نفسه بقدر ما كان يخشى على قضية التحليل النفسي بوصفه علما وليدا ليس له من صلابة العود ما يؤهله لمواجهة التحديات الكبيرة

أعرب فرويد في "مستقبل وهم" بالذات عن مخاوفه الشديدة من أن يتأذى مستقبل التحليل النفسي بشظايا معركة الدين أو رذاذها

حين يكون المرء قد عاش طويلا في جو ثقافة بعينها، وحين يكون قد بذل قصارى جهده في أحيان كثيرة ليكتشف أصولها وطرق تطورها، لابد أن يحس ذات يوم بإغراء يدعوه إلى أن يدير ناظريه في الاتجاه المعاكس ويتساءل بينه وبين نفسه عما سيكونه المصير اللاحق لهذه الثقافة والتحولات التي لا مفر من أن تنتابها

قلة عدد الأشخاص الذين تتوفر فيهم رؤية شمولية للنشاط الإنساني في شتى مجالاته

يخالجنا انطباع بأن الحضارة هي شيء ما تفرضه على أكثرية مشاكسة أقلية عرفت كيف تضع يدها على وسائل القوة والردع

أن كل حضارة ملزمة بأن تشيد نفسها على الاكراه

التلبيات الغريزية الضروريين لبقائها واستمرارها. وسيكون في مستطاع هذه الأجيال أن تستغني عن الاكراه، ولن يكاد يميزها شيء عن زعمائها. وإذا لم توجد حتى اليوم جموع فيهم أن يكونوا مربين للأجيال الصاعدة؛ ومن حقنا أن نتراجع مذعورين أمام فكرة المجهود الجبار من الاكراه الذي لن يكون هناك مفر من بذله إلى أن يتم بلوغ مثل ذلك الهدف. لكننا لا نستطيع أن نماري لا في عظمة هذه الخطة، ولا شك في أنها تقوم على أساس الفطنة السيكولوجية اللبيبة المدركة أن الإنسان محبو باستعدادات غريزية شديدة التنوع، وأن أحداث الطفولة المبكرة تعين لهذه الاستعدادات اتجاهها النهائي. ولهذا أيضا تعين حدود قابلية الانسان للتربية حدود إمكانية مثل ذلك التعديل للثقافة. فأنا لا أملك لا الكفاءة ولا الآهلية المطلوبتين للفصل ما إذا كانت هذه التجربة قابلة للتطبيق العملي، أو لامتحان فعالية الطرائق المستعملة، أو لقياس مدى الصدع المحتم الفاصل بين النية والتنفيذ. فما يتهيأ هناك يدق عن الملاحظة ويفلت منها لأنه لايزال قيد الإنجاز، في حين أن حضارتنا، التي ثبتت واستقرت منذ أمد بعيد، تقدم مادة غنية ثرة لدراستنا.

2- لقد انزلقنا، دون قصد، من الاقتصادي إلى السيكولوجي. ص 14- 20

أفاد فرويد أنه، في البداية كان هناك ما يغرينا بأن نبحث عن كنة الحضارة في الموارد المادية المتاحة وفي نظام توزيعها. لكن بعد التسليم بأن كل حضارة تقوم على الاكراه على العمل وعلى نكران الغرائز، وتقابل بالتالي، لا محالة، بمعارضة أولئك الذين تفرض عليهم هذه المطالب، يتضح بجلاء أن الموارد نفسها وسبل اقتنائها وتوزيعها لا يمكن أن تشكل لا جوهر الحضارة ولا طابعها الأوحد. سوف نطلق، بهدف توحيد مفرداتنا، على واقعة عدم تلبية الغريزة اسم **الإحباط**، وعلى الوسيلة التي يفرض بها هذا الإحباط اسم **الحظر**، وعلى الحالة التي تنجم عن الحظر اسم **الحرمان**. ولابد بعد ذلك من التمييز بين الحرمان الذي يصيب الناس جميعا، وانما فقط بعض الفئات أو الطبقات أو حتى الأفراد. فالرغبات الغريزية التي تعاني منها الأمرين تعاود الولادة مع كل طفل.وثمة طبقة بكاملها من الكائنات الإنسانية، من المصابين بالأمراض العصبية، ترد على تلك الضروب البدائية من الحرمان بالنفور من الحياة الاجتماعية. هذه الرغبات الغريزية هي رغبات حب المحارم وأكل لحم البشر والقتل. لعل الثقافة ستتطور على نحو سيجد معه الناس أنفسهم ملزمين ذات يوم بأن ينظروا إلى بعض التلبيات الغريزية الأخرى، المباحة تماما اليوم، بنفس عين الاستهجان التي ينظرون بها الآن إلى النزعة إلى أكل لحم البشر.

أضاف المؤلف، أن ثمة عامل سيكولوجي، كان له دوره في أقدم تلك الضروب من التنكر للغريزة، لا يزال يحتفظ بأهميته بالنسبة إلى كل ما سيتبع. فليس صحيحا القول أن النفس البشرية لم يطرأ عليها أي تطور منذ الأزمنة البدائية، وأنها لا تزال إلى اليوم في مواجهة تقدم العلم والتقنية على ما كانت عليه في منابت التاريخ. وفي وسعنا أن نلاحظ هنا وجها من وجوه هذا التقدم النفسي. فمما يتفق وتطورنا أن الإكراه الخارجي يجري استبطانه رويدا رويدا، إذ تتبناه سلطة نفسية خاصة نسميها الأنا الأعلى في الإنسان. اشتداد ساعد الأنا الأعلى هذا هو ميراث سيكولوجي رفيع القيمة بالنسبة إلى الثقافة. ومن يتعزز لديه الأنا الأعلى يتحول من عدو للثقافة إلى دعامة لها وسند. لكن حين لا تكون قد تخطت المرحلة التي لا سبيل فيها إلى تلبية مطالب شطر من المشاركين فيها إلا باضطهاد الآخرين، وربما الغالبية، وهذا هو شأن جميع الحضارات اليوم، فإننا نستطيع أن نفهم أن يتفجر قلب المضطهدين عن عداء حاد ومتعاظم للحضارة التي ما كانت لترى النور لولا كدهم وكدحهم، والتي لا يعود اليهم مع ذلك من مواردها سوى حصة

وعلى نكران الغرائز، وليس هناك حتى ما يجزم بأن غالبية الافراد على استعداد، فور رفع الاكراه، لتحمل مشاق المجهود الضرورية لاقتناء مصادر حيوية جديدة.

أن كل انسان تعشش فيه ميول عدائية، وبالتالي مناهضة للاجتماع والثقافة، وإن هذه الميول قوية بما فيه الكفاية لدى عدد كبير من الأشخاص لتحدد سلوكهم في المجتمع الإنساني

بأن جوهر الحضارة هو تسخير الطبيعة للحصول على الموارد الحيوية، وبأن الاخطار التي تتهدد الحضارة ستتلاشى وتضمحل إذا ما تم توزيع الخيرات المنتقاة على هذا النحو توزيعا مناسبا بين البشر

هناك صفتان بشريتان من أكثر الصفات شيوعا تحولان دون إمكانية بناء أي حضارة بدون قدر معين من الاكراه: كون البشر لا يحبون العمل بالفطرة وتلقائيا، وكون الحجج والبراهين عاجزة التأثير على اهوائهم

بعد التسليم بأن كل حضارة تقوم على الاكراه على العمل وعلى نكران الغرائز، وتقابل بالتالي، لا محالة، بمعارضة أولئك الذين تفرض عليهم هذه المطالب، يتضح بجلاء أن الموارد نفسها وسبل اقتنائها وتوزيعها لا يمكن أن تشكل لا جوهر الحضارة ولا طابعها الأوحد

ليس صحيحا القول أن النفس البشرية لم يطرأ عليها أي تطور منذ الأزمنة البدائية، وأنها لا تزال إلى اليوم في مواجهة تقدم العلم والتقنية على ما كانت عليه في

ضئيلة للغاية. ولا يسعنا في هذه الحال أن نتوقع وجود استبطان لدى هؤلاء المضطهدين للنواهي الثقافية.إن المثل العليا تحتذي بأشكال النشاط الأولى التي تأذن بها مواهب فطرية وظروف خارجية لحضارة بعينها، ثم تثبيت هذه الأشكال الأولى في صورة مثل أعلى حتى تكون قدوة تقتدى. وشعور الرضى والارتياح الذي يمنحه مثل من المثل العليا للمشاركين في حضارة معينة هو من طبيعة نرجسية، والأساس الذي يقوم عليه هو الاعتزاز بما تم تحقيقه بنجاح. وحتى يأخذ ذلك الشعور بالرضى والارتياح كامل أبعاده، تقوم كل حضارة بمقارنة نفسها بالثقافات الأخرى التي نذرت نفسها لمهام أخرى وشادت لنفسها مثلا عليا أخرى. إن الشعور النرجسي بالرضى والارتياح المتولد عن المثل الأعلى الثقافي هو بالأصل واحدة من القوى التي توازن وتعوض على انجع نحو عن العداء للحضارة داخل الجماعة الثقافية بالذات. إن تقمص المضطهدين هذا لشخصية الطبقة التي تسوسهم وتستغلهم ليس سوى جزء من كل أو مجموع أكبر. ومن الممكن للمضطهدين، علاوة على ذلك، أن يكونوا على ارتباط عاطفي بأولئك الذين يضطهدونهم، وأن يروا في سادتهم بالرغم من كراهيتهم لهم مثلهم الأعلى. ولو لم تكن مثل هذه العلاقات، الباعثة على الرضى والارتياح في صميم الأمر، موجودة، لما كان أمكن لنا أن نفهم كيف استطاع عدد كبير من الحضارات أن يدوم ويعمر طويلا بالرغم من عداء الجموع الذي له ما يبرره ويسوغه.

3- فيم تكمن القيمة الخاصة للأفكار الدينية؟ ص 21- 28

صرح فرويد أنه، لقد تكلمنا للتو عن العداء للحضارة، المتولد عما تمارسه وعما تتطلبه من نكران للغرائز. هل تتصورون جميع تلك النواهي وقد رفعت؟ في هذه الحال سيكون في وسعكم أن تستولوا على كل امرأة تروق لكم، بدون تردد، أو أن

تقتلوا منافسكم أو كل من يقف في طريقكم، أو أن تختلسوا من الآخر ما شئتم من أملاكه من دون أن تأخذوا موافقته! الا كم سيكون ذلك جميلا، وما أكثر الملذات التي ستقدمها لنا الحياة في هذه الحال! لكن الصعوبة الأولى لا تلبث في الحقيقة أن تتكشف بسرعة. فلقريبي نفس ما لدي من رغائب، ولن يعاملني بمراعاة أكبر من تلك التي سأعامله بها. فلو ألغيت الثقافة لما بقي شيء آخر سوى الوضعية الطبيعية، وهذه يصعب تحملها أكثر من الحضارة بكثير. صحيح أن الطبيعة لا تطلب منا أن نحد من غرائزنا، بل ترخي لها حبل الحرية كاملا، لكن لها طريقتها، وهي طريقة فعالة للغاية، في تقييدنا: فهي تقضي علينا بكل برود وقسوة ووحشية، على حد ما نتصور وتفعل ذلك بالضبط إرضاء لنا في بعض الأحيان. وفي الحق، أن المهمة الرئيسية للحضارة، مبرر وجودها الأول، أن تحمينا من الطبيعة. أن الطبيعة تنتصب في وجوهنا معادية، عظيمة، قاسية، لا تشفق ولا ترحم. وهي تذكرنا أيضا بضعفنا وعوزنا اللذين كنا نأمل أن ننجو منهما بفضل كد حضارتنا وكدحها. وإنه لواحد من أندر المشاهد الرائعة والنبيلة التي يمكن أن يقدمها البشر أن نراهم يواجهون كارثة من كوارث العناصر الطبيعية وقد تناسوا خلافاتهم ومشاحناتهم وخصوماتهم التي نفرق بينهم كي يتذكروا مهمتهم الكبرى المشتركة: الحفاظ على الإنسانية في مواجهة قوى الطبيعة المتفوقة.

إن الحياة ليصعب تحملها بالنسبة إلى الفرد كما بالنسبة إلى الإنسانية بوجه عام. فالحضارة التي يشارك فيها تفرض عليه درجة محددة من الحرمان، ويسبب له الناس الآخرون مقدارا معينا من الألم، أما بخرقهم تعاليم هذه الحضارة وأما بسبب نقصها وعدم كمالها. أضف إلى ذلك المصائب التي تنزلها به الطبيعة الجامحة غير المروضة، والتي يطلق عليها المقادير. وقد ينجم

منابت التاريخ

أن الإكراه الخارجي يجري استبطانه رويدا رويدا، إذ تتبناه سلطة نفسية خاصة نسميها الأنا الأعلى في الإنسان

اشتداد ساعد الأنا الأعلى هذا هو ميراث سيكولوجي رفيع القيمة بالنسبة إلى الثقافة. ومن يتعزز لديه الأنا الأعلى يتحول من عدو للثقافة إلى دعامة لها وسند

إن تقمص المضطهدين هذا لشخصية الطبقة التي تسوسهم وتستغلهم ليس سوى جزء من كل أو مجموع أكبر. ومن الممكن للمضطهدين، علاوة على ذلك، أن يكونوا على ارتباط عاطفي بأولئك الذين يضطهدونهم، وأن يروا في سادتهم بالرغم من كراهيتهم لهم مثلهم الأعلى

لو لم تكن مثل هذه العلاقات، الباعثة على الرضى والارتياح في صميم الأمر، موجودة، لما كان أمكن لنا أن نفهم كيف استطاع عدد كبير من الحضارات أن يدوم ويعمر طويلا بالرغم من عداء الجموع الذي له ما يبرره ويسوغه

صحيح أن الطبيعة لا تطلب منا أن نحد من غرائزنا، بل ترخي لها حبل الحرية كاملا، لكن لها طريقتها، وهي طريقة فعالة للغاية، في تقييدنا: فهي تقضي علينا بكل برود وقسوة ووحشية، على حد ما نتصور وتفعل ذلك بالضبط إرضاء لنا في بعض الأحيان

أن المهمة الرئيسية للحضارة، مبرر وجودها الأول، أن تحمينا من الطبيعة. أن الطبيعة تنتصب في وجوهنا

عن ذلك قلق وهم دائمان من النوائب، وإذلال خطير للنرجسية الطبيعية. ونحن نعلم ما رد فعل الفرد على الاضرار والخسائر التي تزلها به الطبيعة وسائر بني الإنسان: فهو يواجه مؤسسات هذه الحضارة بمقاومة يتناسب حجمها وآلامه، ويقف من الحضارة بالذات موقف العداء. لكن كيف يذود عن نفسه خطر قوى الطبيعة أو المقادير العليا التي تتهدده بمثل ما تتهدد به سائر بني الإنسان؟ إن الحضارة تعفيه من هذه المهمة مثلما تعفي سائر الناس، وبنفس الطريقة. وإنه لما يلفت النظر أن جميع الحضارات تسلك هنا المسلك عينه. فالحضارة لا تتوقف لحظة واحدة في أدائها لمهمة الدفاع عن الإنسان ضد الطبيعة، ولكنها تغير فقط منهجها. ومع مر الأزمان تراكمت الملاحظات الأولية عن نظامية ظواهر الطبيعة وقانونيتها، فجردت القوى الطبيعية من سماتها وقسماتها الإنسانية. لكن الضائقة البشرية تبقى كما هي، ويبقى معها الحنين إلى الأب وإلى الآلهة. وتحتفظ الآلهة بمهمتها المثلثة التي يفترض فيها أن تؤديها: تعزيم قوى الطبيعة، مصالحتنا مع قسوة الاقدار كما تتجلى في الموت بوجه خا ، وأخيرا تعويضنا عن الالام والأوجاع والحرمانات التي تفرضها حياة المتمدنين المشتركة على الإنسان، ولكن بين وظائف الآلهة الثلاث هذه يتنقل التركيز شيئا فشيئا. فالبشر لابد أن يلاحظوا في نهاية المطاف أن ظاهرات الطبيعة تحدث من تلقاء نفسها طبقا لضرورات داخلية. صحيح أن الآلهة سادة الطبيعة، وأنهم هم الذين فطروها على ما هي عليه، ولكن في وسعهم الآن أن يدعوها وشأنها. وبالفعل، لا تتدخل الآلهة في مجرى الظاهرات الطبيعية إلا فيما ندر، وذلك حين يصنعون معجزة ما، كما لو أنهم يريدون أن يؤكدوا لنا أنهم لم يفقدوا شيئا من قوتهم البدائية. أما فيما يتعلق بصروف الاقدار وخطوبها، فإن ثمة هاجسا مبهما وغير محبب للنفس ينذرنا بأنه لا سبيل إلى درء ضائقة الجنس البشري وحيرته واضطرابه.

هذا كله يعدل القول بأن الحياة، في هذه الدنيا، تعمل في خدمة تدبير سام أعلى، تدبير يصعب التكهن بطبيعته، لكنه ذو دخل بكل تأكيد بكمال كينونة الإنسان. ولعل موضوع هذا التعظيم والتمجيد سيكون الشطر الروحي من الإنسان، الروح التي انفصلت على مر الزمن عن الجسد ببطء بالغ وعلى مضض شديد. وكل ما يحدث في هذه الدنيا ينبغي أن يعد تنفيذا لمقاصد عقل يسمو على عقلنا، يدبر جميع الأمور على أحسن وجه، أي لخيرنا، وأن سلك دروبا ومنعرجات يصعب تتبعها. وعلى كل منا تسهر عناية الهية رفيقة، غير صارمة إلا في الظاهر، عناية لا تسمح بأن نصير ألعوبة بين أيدي القوى الطبيعية الساحقة العادمة الشفقة. وحتى الموت بالذات ليس اضمحلالا، ليس عودة إلى حيث اللاحياة واللاحركة، وإنما هو بداية ضرب جديد من الوجود، مرحلة على طريق تطور أسمى وأرفع. أما فيما يتعلق بالوجه الثاني للمسألة، فإن القوانين الأخلاقية التي قامت عليها حضاراتنا هي عينها التي تسوس الكون، بيد أن هناك على هذا المستوى محكمة عليا تسهر على التقيد بها بقوة ومنطق أعظم بما لا يقاس. وما الحكمة السامية التي توجه هذه المقادير، وما الطيبة الفائقة التي تتجلى فيها، وما العدالة التي تتحقق فيها، سوى سجايا الكائنات الإلهية التي فطرتنا وفطرت الكون معنا. فقد سلط بذلك الضوء على النواة الأبوية، المستترة، لكن الماثلة في جميع الوجوه الإلهية. وكان ذلك، في واقع الأمر، عودة إلى البدايات التاريخية لفكرة الله. أما وقد أصبح الإله الآن واحدا أحدا، فقد بات في الإمكان أن تتلبس علاقات الإنسان به صميمية علاقات الابن بالأب، أي الشعب المختار. وفي لاحق الأزمان أدعت أميركا الورعة بدورها أنها أرض الله الوحيدة. والحق أن هذا الادعاء له ما يبرره من منظور هذا الشكل المحدد أو ذاك من الأشكال التي يعبد بها الانسان الإله. أن الأفكار التي لخصناها فيما تقدم كما

معادية، عظيمة، قاسية، لا تشفق ولا ترحم

من أندر المشاهد الرائعة والنبيلة التي يمكن أن يقدمها البشر أن نراهم يواجهون كارثة من كوارث العناصر الطبيعية وقد تناسوا خلافاتهم ومشاحناتهم وخصوماتهم التي تفرق بينهم كي يتذكروا مهمتهم الكبرى المشتركة: الحفاظ على الإنسانية في مواجهة قوى الطبيعة المتفوقة.

إن الحياة ليصعب تحملها بالنسبة إلى الفرد كما بالنسبة إلى الإنسانية بوجه عام. فالحضارة التي يشارك فيها تفرض عليه درجة محددة من الحرمان، ويسبب له الناس الآخرون مقدارا معينا من الألم، أما بخرقهم تعاليم هذه الحضارة وأما بسبب نقصها وعدم كمالها

الحضارة لا تتوقف لحظة واحدة في أدائها لمهمة الدفاع عن الإنسان ضد الطبيعة، ولكنها تغير فقط منهجها

أن الحياة، في هذه الدنيا، تعمل في خدمة تدبير سام أعلى، تدبير يصعب التكهن بطبيعته، لكنه ذو دخل بكل تأكيد بكمال كينونة الإنسان

حتى الموت بالذات ليس اضمحلالا، ليس عودة إلى حيث اللاحياة واللاحركة، وإنما هو بداية ضرب جديد من الوجود، مرحلة على طريق تطور أسمى وأرفع

إن القوانين الأخلاقية التي قامت عليها حضاراتنا هي عينها التي تسوس الكون، بيد أن هناك على هذا المستوى محكمة عليا تسهر

أفاد المؤلف، قد نالها تطور مديد، وتبنتها في مختلف مراجلها حضارات شتى.

على التقيد بها بقوة ومنطق أعظم بما لا يقاس

4- إن بحثا يأخذ مونولوج متواصل لا يخلو البتة من أخطار. ص 29- 33

أن المرء قد يستسلم بسهولة لإغراء اقصاء الأفكار التي قد تقطع عليه حواره مع نفسه، وينتابه بالمقابل إحساس بعدم اليقين، فيسعى إلى أن يخنقه تحت وطأة ثقة بالنفس مبالغ فيها

أشار المؤلف أن المرء قد يستسلم بسهولة لإغراء اقصاء الأفكار التي قد تقطع عليه حواره مع نفسه، وينتابه بالمقابل إحساس بعدم اليقين، فيسعى إلى أن يخنقه تحت وطأة ثقة بالنفس مبالغ فيها. بالرغم من ذلك، أعتقد أنه من حقي الكلام على النحو الذي تكلمت به. فقد حاولت أن أبين أن الأفكار الدينية تنبع من نفس الحاجة التي تنبع منها سائر فتوحات الحضارة ومنجزاتها: ضرورة الدفاع عن النفس ضد تفوق الطبيعة الساحق. إنه من مطلق الصحة أن نقول أن الحضارة تهب الأفراد تلك الأفكار، إذ أنه يلفاها موجودة من قبله، مقدمة إليه على طبق جاهز، ويعجز عن اكتشافها لو أراد أن يكتشفها من تلقاء نفسه. إنها تراث سلسلة من الأجيال، تراث يرثه، يتلقاه، مثله في ذلك مثل جدول الضرب والهندسة الخ. صحيح أن بين الأمرين فرقا، لكنه يكمن في موضع آخر، وليس في وسعنا هنا بعد أن نزيح النقاب عنه. ولعل شعور الغرابة الذي أشرت إليه يرجع جزئيا إلى اعتيادنا على تصوير ذلك التراث من الأفكار الدينية لأنفسنا باعتباره وحيا منزلا. لكن هذا بذاته، ومن الأساس، جزء من النظام الديني، وهذا ما يحمل الناس على أن يسقطوا من الاعتبار كل التطور التاريخي المعروف لتلك الأفكار وتبدلاتها بحسب اختلاف العصور واختلاف الحضارات.

حاولت أن أبين أن الأفكار الدينية تنبع من نفس الحاجة التي تنبع منها سائر فتوحات الحضارة ومنجزاتها: ضرورة الدفاع عن النفس ضد تفوق الطبيعة الساحق

ولليس من الطبيعي البتة- بل أن هنا مصادفة تدعو إلى العجب- أن نرى الإنسان يفلح في تلبية واحدة من أهم حاجاته، بمجرد أن يترك المجال حرا أمام استعداداته الطبيعية. -لا اجد ذلك يبعث على العجب الشديد. فهل تعتقد أن فكر البشر لا يملك دوافع عملية، وأنه لا يعدو أن يكون تعبرا عن فضول متجرد غير مغرض؟ هذا مستبعد. ويتسأل فرويد، هل يمكن حقا أن يقال أن تفكيري قد تحول؟ لم يكن قصدي في "الطوطم والمحرم" أن أفسر أصل الأديان، وإنما فقط أصل الطوطمية. فهل تستطيع، من أي وجهة نظر معروفة لديك، أن تفسر لماذا كان الشكل الأول الذي تجلت فيه الألوهية الحامية الواقية هو الشكل الحيواني، ولماذا حرم قتل هذا الحيوان وأكله، ولماذا كان يقتل مع ذلك مرة في كل سنة- عادة احتفالية كبرى- وتؤكل على مائدة مشتركة؟ هذا بالضبط ما يحدث في الطوطمية. فللطوطمية صلات حميمة بالأديان اللاحقة التي تظهر فيها آلهة وتتحول فيها الحيوانات الطوطمية إلى حيوانات الآلهة المقدسة. وأهم القيود الأولى- حظر قتل الانسان وحظر حب المحارم- التي تفرضها الأخلاق، ترى النور في إطار الطوطمية. أما السبب الذي قضى بألا يعود الإله الحيواني كافيا على المدى الطويل، فحل محله الإله الإنساني، فهذه مشكلة لم يسمها "الطوطم والمحرم" إلا مسا خفيفا. كما أن هذا الكتاب لم يتطرق بتاتا إلى ذكر مشكلات أخرى تتعلق بتكوين الأديان. لكن هل تعتقد أن مثل هذا التحديد أو الحصر يعادل نفيا؟ إن عملي مثال جيد على العزلة التي قد تفرض على اسهام الملاحظة التحليلية النفسية في حل المشكلة الدينية. وإذ أحاول الآن أن أضيف إليه شيئا آخر أقل خفية عن الأنظار، فلا ينبغي اتهامي اليوم بمناقضة نفسي مثلما اتهمت في الماضي بأحادية الجانب. إن مهمتي هي بالطبع أن أبين الطريق التي تربط ما قلته يومئذ بما أدعيه الآن، الطريق التي تربط الحافز العميق بالظاهر، العقدة الأبوية بضائقة البشر وبحاجتهم إلى الغوث. وحين يتبين الطفل، وهو يشب ويترعرع، إنه مقضي عليه بأن يبقى أبد حياته طفلا، وانه لن يكون في مقدوره أبدا أن يستغني عن الحماية من القوى العليا والمجهولة، يضفي عندئذ على هذه القوى قسمات وجه الأب، ويبتدع

للطوطمية صلات حميمة بالأديان اللاحقة التي تظهر فيها آلهة وتتحول فيها الحيوانات الطوطمية إلى حيوانات الآلهة المقدسة.

أهم القيود الأولى- حظر قتل الانسان وحظر حب المحارم- التي تفرضها الأخلاق، ترى النور في إطار الطوطمية

السبب الذي قضى بألا يعود الإله الحيواني كافيا على المدى الطويل، فحل محله الإله الإنساني، فهذه مشكلة لم يسمها "الطوطم والمحرم" إلا مسا خفيفا

هنا بالتحديد يتدخل نشاط من ينادون الأرواح ويستحضرونها؛ فهو كلهم ثقة ويقين بأن نفس الفرد تبقى على قيد الحياة، ويريدون أن يبرهنوا لنا على أن هذا البند من بنود المذهب الديني لا يقبل مماراة أو

لنفسه آلهة، آلهة يخشى جانبها ويسعى إلى أن يحظى بعطفها ويعزو اليها في الوقت نفسه مهمة حمايته. هكذا يتفق حنين الطفل إلى الأب مع ما يحس به من حاجة إلى حماية بحكم الضعف البشري؛ كما أن رد فعل الطفل الدفاعي حيال شعور الضيق يتفق ورد فعل الراشد حيال الشعور بالضيق الذي يخالجه بدوره، والذي يتولد عنه الدين وسماته المميزة.

5- لنتابع الآن بحثنا: ما الدلالة السيكولوجية للأفكار الدينية، وفي أي باب يمكننا تصنيفها؟ ص 34- 40

قال فرويد: وجدت نفسي ذات يوم، ولأول مرة في حياتي بعد أن أدركت سن النضج، في أثينا على تلة الأكروبول، بين أنقاض المعابد، أجيل الطرف في البحر الأزرق. كان يخالط فرحي شعور بالدهشة يحدوني إلى القول: "الأشياء هذه إذن فعلا كما كانوا يعلموننا إياها في المدرسة! فهل يعني هذا أن إيماني بما كنت أسمعه كان بالغ الوهن والسطحية حتى ينتابني ما ينتابني اليوم من دهشة شديدة!". لكنني لا أريد أن أعلق وزنا أثقل مما ينبغي على هذا الحدث: فثمة تفسير آخر ممكن لدهشتي، تفسير لم يخطر لي ساعتئذ في بال؛ وهذا التفسير له صفة ذاتية مطلقة وعلى صلة بالطابع الخا للمكان. إن جميع "المعتقدات" التي من هذه الشاكلة تتطلب الإيمان بما تدعيه، لكنها لا تترك هذا الادعاء بلا ركائز يقوم عليها. ويحسب هنا على الدوام حساب مصدر المعرفة التي تزود بها تلك المعتقدات الانسان، حين لا يكون هذا المصدر، كما في التوكيدات الجغرافية، بديهية مسلما بها. على سبيل المثال: أن للأرض شكل كرة؛ ومن البراهين التي تقدم على كرويتها تجربة نواس فوكو، وظاهرات الأفق، والطواف البحري حول الأرض. ولنتساءل: ما الأساس الذي تستند إليه مطالبتها إيانا بالتصديق والايمان؟ ثمة ثلاثة أجوبة على ذلك لا يجمع بينها رباط مكين. فهي تستأهل، أولا، التصديق لان أسلافنا الأوائلكانوا يؤمنون بها. ونحن نملك، ثانيا، أدلة وبراهين يعود تاريخها إلى تلك الأزمنة البدائية بالتحديد، وقد تناقلتها الأجيال حتى وصلت الينا. ومن المحظر، ثالثا وأخيرا، طرح مسألة صدقها وصحتها. وهذه فعلة متهورة كانت تعاقب في الماضي بأصرم القصا ، ولا يزال المجتمع إلى اليوم ينظر بعين الاستهجان إلى من يتجرأ على تكرارها. لتمحيص الحجتين الباقيتين، علينا أن نؤمن لإن أسلافنا آمنوا. لكن هؤلاء الأسلاف كانوا أشد جهلا منا بكثير، وكانوا يؤمنون بأشياء يتعذر اليوم قبولها.من الممكن اذن ان تدخل المذاهب الدينية نفسها في هذا الباب. والأدلة، التي تركوها لنا ميراثا، مدونة في نصو يحيط بها هي نفسها الشك. فهذه النصو تعج بالتناقضات والمراجعات والتدليسات. ولا يمكن الوثوق اليها حتى عندما تتكلم عن وقائع ثابتة. أما ما تدعيه لنصها إذا كانت جميع الأدلة والبراهين التي تساق لتأكيد صحة المعتقدات الدينية تستقى من الماضي، فمن الطبيعي والحالة هذه أن نلقي نظرة سريعة حوالينا حتى نرى الا يستطيع الحاضر، الذي يسهل علينا أن نصدر عليه حكما قياسا إلى الماضي، أن يقدم هو أيضا أدلة وبراهين مماثلة. فلو أفلحنا عن هذا الطريق في تحرير جزء صغير واحد من النظام الديني من الشك والريبة، لأمكن لهذا النظام ان يكتسب في مجمله قابلية هائلة للتصديق.

وهنا بالتحديد يتدخل نشاط من يناجون الأرواح ويستحضرونها؛ فهم كلهم ثقة ويقين بأن نفس الفرد تبقى على قيد الحياة، ويريدون أن يبرهنوا لنا على أن هذا البند من بنود المذهب الديني لا يقبل مماراة أو تشكيكا. لكنهم لسوء الحظ لم يتواصلوا إلى دحض حقيقة أن الاشباح وتظاهراتها الروحية ليست سوى نتيجة نشاطهم النفسي هم بالذات. بيد أن قانون الايمان هذا لا أهمية له الا

تشكيكا

لسوء الحظ لم يتواصلوا إلى دحض حقيقة أن الاشباح وتظاهراتها الروحية ليست سوى نتيجة نشاطهم النفسي هم بالذات

الحق أنه ليس ثمة سلطة تعلو على سلطة العقل، ولا حجة تسمو على حجته

الإحساس المرعب بالضائقة الطفلية ايقظ الحاجة إلى الحماية- الحماية بالحب- وهي حاجة لباها الأب

من مقدمات المنظومة الدينية تشتق وتتفرع أجوبة على الأسئلة التي يطرحها الفضول البشري على نفسه بصدد الألغاز التالية: أصل الكون، العلاقة بين الجسد والروح، الخ

ينفث العبء على النفس الفردية حين ترى صراعات الطفولة المنبثقة عن المركب الأبوي- وهي صراعات لم تحل قط تمام الحل- وقد أسقطت عن كاهلها إذا صح التعبير وتلقت لها حلا يقبل به الجميع

حين أقول أن ذلك كله عبارة عن توهمات، فلا بد لي من تحديد معنى هذه الكلمة. فليس التوهم والخطأ شيئا واحدا، كما أن التوهم ليس بالضرورة خطأ

أن المذاهب الدينية جميعها أوهام، لا سبيل إلى إقامة البرهان عليها، ولا يمكن أن يرغم أي إنسان على ان يعدها صحيحة وعلى أن يؤمن بها

بعض هذه المذاهب بعيدة الاحتمال وصعبة التصديق

بقدر ما يكون عقيدة شخصية؛ اما بصفته مرسوما فإنه لا يلزم أحدا. هل يمكن أن أكون مرغما على تصديق جميع الاحالات؟ وإذا لم يكن الجواب بالإيجاب، فما الداعي لان ألزم بتصديق تلك الإحالة بعينها؟ الحق أنه ليس ثمة سلطة تعلو على سلطة العقل، ولا حجة تسمو على حجته. وإذا كانت حقيقة المذاهب الدينية مرهونة بحدث داخلي يشهد تلك الحقيقة. أما المحاولة الثانية فهي محاولة فلسفة "كما لو أن"، ومؤداها: اننا نقبل بأن ندرج في عداد عملياتنا المعرفية جميع ضروب الفرضيات التي يتجلى لنا بكل وضوح افتقارها إلى أساس، بله إحالتها ومخالفتها للعقل. ونحن نطلق على هذه الفرضيات اسم التخيلات أو الأوهام، لكن لا منا لنا، بحكم أسباب عملية متعددة، من أن نتصرف "كما لو أننا" نؤمن بهذه التخيلات والأوهام. وفي هذا الباب بالتحديد تدخل المذاهب الدينية، بالنظر إلى أهميتها المنقطعة النظير في الحفاظ على المجتمعات البشرية وصيانتها. اما الانسان الذي لا يتأثر فكره بشعوذة الفلسفة وأحابيلها، فلا يمكنه أبدا أن يسلم بذلك. فهو لا يرى مجالا لإضافة شيء جديد بعد أن يقر مخاطبه بأن الأمر محال ومخالف للعقل. وليس في وسعنا أن نطلب إليه أن يتخلى، حين تكون المسألة متعلقة بمصالحه الأكثر حيوية على وجه التحديد، عن الضمانات التي يطالب بها أصلا بخصو جميع نشاطاته الاعتيادية.

للغاية، ومتناقضة أشد التناقض مع كل ما تعلمناه، ببالغ المشقة، عن واقع العالم والكون، إلى درجة نستطيع معها أن نشبهها- مع أخذنا بعين الاعتبار كما هو واجب الفروق السيكولوجية- بالأفكار الهاذية

أنه لمن التوهم أيضا أن نتوقع أي شيء كان من الحدس أو من الاستبطان. فالحدس لا يمكن أن يعطينا سوى إشارات- صعبة التأويل- حول حياتنا النفسية، ولا يقدم لنا البتة أي معلومات تتعلق بالمسائل التي يجد لها المذهب الديني ببالغ اليسر أجوبة

6- أعتقد أنه قد تم الاعداد اعدادا كافيا للإجابة على ذينك السؤالين. ص 41- 46

أشار المؤلف أننا لواجدونها حين نوجه انظارنا نحو التكوين النفسي للأفكار الدينية. فهذه الأفكار، التي تطرح نفسها على أنها معتقدات، ليست خلاصة التجربة أو النتيجة النهائية للتأمل والتفكير، وانما هي توهمات، تحقيق لأقدم رغبات البشرية وأقواها وأشدها الحاحا. وسر قوتها هو قوة هذه الرغبات. وبالأصل، نحن نعلم ذلك: فالإحساس المرعب بالضائقة الطفلية ايقظ الحاجة إلى الحماية- الحماية بالحب- وهي حاجة لباها الأب. وإدراك الانسان أن هذه الضائقة تدوم الحياة كلها جعله يتشبث بأب، اب أعظم قوة وأشد بأسا هذه المرة. ومن مقدمات المنظومة الدينية تشتق وتتفرع أجوبة على الأسئلة التي يطرحها الفضول البشري على نفسه بصدد الألغاز التالية: أصل الكون، العلاقة بين الجسد والروح، الخ. ولكم يخف العبء على النفس الفردية حين ترى صراعات الطفولة المنبثقة عن المركب الأبوي- وهي صراعات لم تحل قط تمام الحل- وقد أسقطت عن كاهلها إذا صح التعبير وتلقت لها حلا يقبل به الجميع. حين أقول أن ذلك كله عبارة عن توهمات، فلا بد لي من تحديد معنى هذه الكلمة. فليس التوهم والخطأ شيئا واحدا، كما أن التوهم ليس بالضرورة خطأ. أن ما ذهب اليه أرسطو من أن الدود وليد القذارة- وهو رأي لا يزال يعتنقه الجهلة من الناس- كان خطأ. إن الفكرة الهاذية متناقضة جوهرا- ونحن نشدد على هذه الصفة- مع الواقع؛ بينما ليس الوهم بالحتم والضرورة خاطئا، أي غير قابل للتحقيق أو متناقضا مع الواقع. أن لفي مستطاع فتاة وضيعة النسب أن توهم نفسها، على سبيل المثال، بأن أميرا من الأمراء سيأتي باحثا عنها ليتزوجها. والحال أن ذلك ممكن؛ وقد حدثت فعلا بعض حالات من هذا النوع. بيد أنه لأمر أبعد بكثير عن الاحتمال أن يأتي المسيح المنتظر ويفتتح العصر الذهبي: ومن يدع إلى اصدار حكم على هذا الاعتقاد فسيصنفه، تبعا لموقفه الشخصي، بين الأوهام أو بين نظائر الفكرة الهاذية. أن المذاهب الدينية جميعها أوهام، لا سبيل إلى إقامة البرهان عليها، ولا يمكن أن يرغم أي إنسان على ان يعدها صحيحة وعلى أن يؤمن بها. وبعض هذه المذاهب بعيدة الاحتمال وصعبة التصديق للغاية، ومتناقضة أشد التناقض مع كل ما تعلمناه،

لا يزال النقاد يصرون على اطلاق صفة "التدين العميق" على كل انسان يقر بما يراوده من شعور بتفاهة الانسان وبالعجز البشري في مواجهة الكون، وهذا بالرغم من أن جوهر التدين لا يقوم على ذلك الشعور، وانما بالأحرى على المسعى الذي يعقبه ويتفرع منه، أي رد فعل الانسان على ذلك الشعور في محاولة لاتقائه والتحصن ضده

أما من يسلم بكل تواضع بالدور الضئيل الذي يلعبه الإنسان في فسيح الكون، فهو بالأحرى لا متدين بأصدق معاني الكلمة

أننا نعرف على وجه التقريب في أي عصر وعن أي ضرب من الناس ولدت المذاهب الدينية. وإذا علمنا أيضا الدافع الكامن وراء ظهورها، يكون قد طرأ تبدل مرموق على الوجهة التي يجب أن ينظر منها إلى المشكلة الدينية

بالغ المشقة، عن واقع العالم والكون، إلى درجة نستطيع معها أن نشبهها- مع أخذنا بعين الاعتبار كما هو واجب الفروق السيكولوجية- بالأفكار الهاذية. ومعظمها يصعب الحكم على قيمته الفعلية؛ ولا سبيل إلى دحضها كما لا سبيل إلى اثباتها. بيد أن العمل العلمي هو الطريق الوحيدة التي يمكن أن تؤدي إلى معرفة الواقع الخارجي.

وأنه لمن التوهم أيضا أن نتوقع أي شيء كان من الحدس أو من الاستبطان. فالحدس لا يمكن أن يعطينا سوى إشارات- صعبة التأويل- حول حياتنا النفسية، ولا يقدم لنا البتة أي معلومات تتعلق بالمسائل التي يجد لها المذهب الديني ببالغ اليسر أجوبة. ولن نكون إلا منتهكين للقدسيات إذا أردنا أن نردم الثغرة على النحو الاعتباطي الذي نشاء، وان نحكم تبعا لمشاعرنا الشخصية هل هذا الجزء أو ذاك من أجزاء النظام الديني مقبول بقدر أو بآخر. فهذه المسائل جد مهمة، أقصد جد مقدسة.

ولا يزال النقاد يصرون على اطلاق صفة "التدين العميق" على كل انسان يقر بما يراوده من شعور بتفاهة الانسان وبالعجز البشري في مواجهة الكون، وهذا بالرغم من أن جوهر التدين لا يقوم على ذلك الشعور، وانما بالأحرى على المسعى الذي يعقبه ويتفرع منه، أي رد فعل الانسان على ذلك الشعور في محاولة لاتقائه والتحصن ضده. أما من لا يتوغل إلى أبعد من ذلك، أما من يسلم بكل تواضع بالدور الضئيل الذي يلعبه الإنسان في فسيح الكون، فهو بالأحرى لا متدين بأصدق معاني الكلمة. إن اتخاذ موقف مع أو ضد قيمة المذاهب الدينية من حيث الصحة والحقيقة لا يدخل في نطاق هذه الدراسة. يكفينا أننا تعرفناها بصفتها أوهاما في طبيعتها السيكولوجية. لكن ليس لنا أن نخفي أن هذا الاكتشاف يؤثر عميق التأثير على موقفنا من المسألة التي لابد أن تبدو للكثيرين على أنها أهم المسائل اطلاقا. أننا نعرف على وجه التقريب في أي عصر وعن أي ضرب من الناس ولدت المذاهب الدينية. وإذا علمنا أيضا الدافع الكامن وراء ظهورها، يكون قد طرأ تبدل مرموق على الوجهة التي يجب أن ينظر منها إلى المشكلة الدينية. ولسوف نقول: أنه لجميل ورائع حقا أن يكون هناك إله فاطر للكون وعناية الهية رؤوف ونظام أخلاقي للكون وحياة ثانية، لكن من المثير للفضول فعلا أن يكون هذا كله هو بالتحديد وبالضبط ما يمكننا أن نتمناه لأنفسنا.

7- بمجرد تسليمنا بكون المذاهب الدينية أوهاما. ص 47- 55

صرح فرويد هنا، بأنه لن نتردد، بمجرد أن تستيقظ شكوكنا، في أن نطرح على أنفسنا السؤال التالي: هل هناك أساس من الصحة لثقتنا بقدرتنا على اكتشاف بعض جوانب الواقع الخارجي بالاعتماد على الملاحظة والتفكير والمناهج العلمية؟ الحق أنه لا يجوز لأي شيء أن يمنعنا من تطبيق الملاحظة على طبيعتنا بالذات، أو من استخدام الفطر لنقد الفكر ذاته. هنا تنفتح أمامنا جملة من التقصيات والمباحث، ستكون نتيجتها حاسمة في اشادة "تصور للعالم". بيد أن خصمنا يرفع هنا عقيرته ليهيب بنا أن قفوا، ويدعونا إلى تقديم تفسير لفعلتنا الذميمة: "إن الاهتمام بعلم الآثار اهتمام يحمد عليه المرء بدون أدنى ريب. لكن لا يجوز له أن يجري تنقيبات أثرية إذا كانت الحفريات تقوض دعائم مساكن الاحياء، مما يهددها بأن تتداعى وتنهار وتدفن ساكنيها تحت انقاضها. كذلك ليست المذاهب الدينية موضوعا يستعرض فيه المرء عضلاته الفكرية، مثله مثل أي موضوع آخر.

فعلى أساس هذه المذاهب تقوم حضارتنا، وشرط بقاء المجتمع الإنساني أن تؤمن غالبية الناس

أنه لجميل ورائع حقا أن يكون هناك إله فاطر للكون وعناية الهية رؤوف ونظام أخلاقي للكون وحياة ثانية، لكن من المثير للفضول فعلا أن يكون هذا كله هو بالتحديد وبالضبط ما يمكننا أن نتمناه لأنفسنا.

هل هناك أساس من الصحة لثقتنا بقدرتنا على اكتشاف بعض جوانب الواقع الخارجي بالاعتماد على الملاحظة والتفكير والمناهج العلمية؟

إن الاهتمام بعلم الآثار اهتمام يحمد عليه المرء بدون أدنى ريب. لكن لا يجوز له أن يجري تنقيبات أثرية إذا كانت الحفريات تقوض دعائم مساكن الاحياء، مما يهددها بأن تتداعى وتنهار وتدفن ساكنيها تحت انقاضها

ليست المذاهب الدينية موضوعا يستعرض فيه المرء عضلاته الفكرية، مثله مثل أي موضوع آخر.

على أساس هذه المذاهب تقوم حضارتنا، وشرط بقاء المجتمع الإنساني أن تؤمن غالبية الناس بها. ولو أدخلنا في إذهان الناس أنه لا وجود لا لإله عادل وفائق القوة، ولا لنظام إلهي للكون، ولا لحياة ثانية، لأحسوا للحال بأنهم معفون من كل التزام بالامتثال لقوانين الحضارة واتباعها

لو رفع كل تحظير، وحرر الفرد من كل خوف، لاطلق الانسان العنان لغرائزه اللااجتماعية، الأنانية، ولسعى إلى فرض سلطانه وسيطرته. وبذلك ستعود إلى الظهور الفوضى التي توصلنا إلى وضع حد لها بعمل حضاري

بها. ولو أدخلنا في إذهان الناس أنه لا وجود لا لإله عادل وفائق القوة، ولا لنظام إلهي للكون، ولا لحياة ثانية، لأحسوا للحال بأنهم معفون من كل التزام بالامتثال لقوانين الحضارة واتباعها. ولو رفع كل تحظير، وحرر الفرد من كل خوف، لاطلق الانسان العنان لغرائزه اللااجتماعية، الأنانية، ولسعى إلى فرض سلطانه وسيطرته. وبذلك ستعود إلى الظهور الفوضى التي توصلنا إلى وضع حد لها بعمل حضاري تمديني استغرق آلاف السنوات. وحتى لو كنا نعلم ونستطيع أن نثبت أن الدين لا يضم الحقيقة بين جناحيه، لكان واجبا علينا أن نلزم الصمت حول ذلك وأن نسلك المسلك الذي تطلبنا به فلسفة "كما لو أن". لعلي سأبدأ بالتوكيد أنني أنا نفسي أعتبر مشروعي غير مؤذ ولا يترتب عليه من خطر. ولست أنا الذي يبالغ في أهمية العقل هذه المرة. فإذا كان البشر هم فعلا كما يصفهم خصومي– وليس لي أن أناقضهم– فليس ثمة من خطر اذا تخلى واحد من الاتقياء الورعين عن ايمانه بعد أن تكون حججي قد أفحمته وسدت عليه السبل. ثم هل قلت شيئا غير ما قاله رجال آخرون، أهل للثقة أكثر مني، وغير ما قالوه بصورة أكمل وأقوى وأفصح وأبلغ؟ وأسماء هؤلاء الرجال معروفة لدى الجميع؛ وانا لن أسميهم لأنني لا أريد أن يبدو علي أنني أضع نفسي في مصافهم وأعتبر ذاتي واحدا منهم. سأطرح السؤال التالي: ألا يمكن على كل حال أن يلحق نشر هذه الدراسة الضرر بأحد ما؟ أجل، ولكن ليس بشخص ما، وانما بقضية ما: قضية التحليل النفسي. فليس لي أن أنكر أن التحليل النفسي هو من ابتكاري، وقد أثار حتى الآن الريبة وسوء النية على نطاق واسع؛ فإذا ما تقدمت الآن بآراء مغيظة ومثيرة للنفور فلن يكون أسهل على الناس من تحويل مشاعرهم عن شخصي إلى التحليل النفسي. وسوف يقول القائلون: ها قد بات في مقدورنا الآن أن نرى إلى أين يقود التحليل النفسي. فقد سقط القناع: أنه يقود إلى نفي الله وكل مثل أعلى أخلاقي، مثلما كنا نشتبه بذلك دائما. وحتى يحول أنصاره بيننا وبين التنبه لذلك جعلونا نعتقد أن التحليل النفسي ليس "تصورا للكون" ولا يمكن البتة أن يصبح كذلك.

أن التحليل النفسي لهو في الواقع منهج للبحث والتقصي، أداة حيادية شبيهة، إذا جاز التعبير، بالحساب اللانهائي الصغر. فإذا توصل عالم من علماء الفيزياء، بفضل هذا الحساب، إلى أن يكتشف أن الأرض ستفنى وتضمحل في أجل محدد، فإنواحدنا سيردد في عزو ميول تدميرية إلى الحساب نفسه، وبالتالي في تحظيره وتحريمه. وليس فيما قلته عن القيمة الفعلية للدين ذرة واحدة كانت بحاجة إلى التحليل النفسي؛ فقد سبقني كثيرون غيري إلى قوله قبل أن يظهر التحليل النفسي إلى حيز الوجود بحقبة طويلة. وإذا أمكن، من خلال تطبيق المناهج التحليلية النفسية، الوصول إلى حجة جديدة ضد صدق الدين، فالغلطة في هذه الحال، وآأسفاه، غلطته. بيد أن الذائدين عن حياض الدين سيكون لهم حق مماثل في استخدام التحليل النفسي لتقييم الأهمية العاطفية للمذهب الديني بحق قيمتها. ولم يعد الكهنة، الذين كانت وظيفتهم السهر على التقيد بالدين، وسيلة للتواطؤ معهم على نحو ما. وكانت رأفة الله تشل عدالته. وكان الناس يرتكبون المعاصي، ثم يقدمون الاضاحي أو يقرعون السن ندما وتوبة، ويمسون من ثم أحرارا في ارتكاب المعاصي من جديد. وقد أرتقى التصوف الروسي أخيرا إلى التصور التالي: أن الخطيئة ضرورية لا غنى عنها إذا أراد المرء الاستمتاع بكل بركات النعمة الإلهية، ومن هنا فإن الخطيئة عمل محبب للرب في خاتمة المطاف. معلوم اذن للجميع أن الكهنة ما وجدوا سبيلا إلى حمل الجموع على الاستمرار في الانصياع للدين إلا على حساب تلك التنازلات الكبرى لصالح غرائز الآدميين. وقد ألتزموا هذه الحدود ولم يتخطوها: فالله هو وحده القوي الرؤوف، والانسان ضعيف وخاطئ.

تمديني استغرق آلاف السنوات.

ليس لي أن أنكر أن التحليل النفسي هو من ابتكاري، وقد أثار حتى الآن الريبة وسوء النية على نطاق واسع؛ فإذا ما تقدمت الآن بآراء مغيظة ومثيرة للنفور فلن يكون أسهل على الناس من تحويل مشاعرهم عن شخصي إلى التحليل النفسي

سوف يقول القائلون: ها قد بات في مقدورنا الآن أن نرى إلى أين يقود التحليل النفسي. فقد سقط القناع: أنه يقود إلى نفي الله وكل مثل أعلى أخلاقي، مثلما كنا نشتبه بذلك دائما

أن التحليل النفسي لهو في الواقع منهج للبحث والتقصي، أداة حيادية شبيهة، إذا جاز التعبير، بالحساب اللانهائي الصغر

ليس فيما قلته عن القيمة الفعلية للدين ذرة واحدة كانت بحاجة إلى التحليل النفسي؛ فقد سبقني كثيرون غيري إلى قوله قبل أن يظهر التحليل النفسي إلى حيز الوجود بحقبة طويلة

قد أرتقى التصوف الروسي أخيرا إلى التصور التالي: أن الخطيئة ضرورية لا غنى عنها إذا أراد المرء الاستمتاع بكل بركات النعمة الإلهية، ومن هنا فإن الخطيئة عمل محبب للرب في خاتمة المطاف

معلوم اذن للجميع أن الكهنة ما وجدوا سبيلا إلى حمل الجموع على الاستمرار في الانصياع للدين إلا على حساب تلك التنازلات الكبرى لصالح غرائز الآدميين

وفي كل زمن وعصر، لاقت اللاأخلاقية في الدين من الدعم قدرا يوازي ما لاقته الأخلاقية. وإذا لم يكن ما أنجزه الدين، لإسعاد البشر وتكييفهم مع الحضارة وتمكينهم من السيطرة الأخلاقية على أنفسهم، ذا قيمة أكبر، فعندئذ ينطرح السؤال: ألم نبالغ في ضرورة الدين للبشر، وهل يحق لنا أن نشيد عليه متطلبات حضارتنا؟

في كل زمن وعصر، لاقت اللاأخلاقية في الدين من الدعم قدرا يوازي ما لاقته الأخلاقية

نحن نعلم أن الطفل البشري لا يستطيع أن يكمل تطوره وارتقاءه نحو الحضارة من دون أن يمر بمرحلة عصابية مستفحلة بقدر أو بآخر

أن الطفل عاجز عن أن يقمع بعمل ذهني عقلي ذلك القدر الكبير من الدوافع الغريزية الكامن فيه، وهي دوافع لن تكون له بها حاجة فيما بعد بوصفه متمدنا ومتحضرا، وعليه من ثم أن يتغلب عليها ويقهرها بأفعال كبتية يختفي وراءها عادة باعث خوف

معظم ضروب العصاب الطفلي هذه تختفي تلقائيا حين يشب الطفل عن الطوق

في مقدورنا كذلك أن نفترض أن البشرية تمر بجملتها، أثناء تطورها وارتقائها، بحالات مشابهة للعصاب (وللأسباب ذاتها)

هكذا يمكن القول بأن الدين هو عصاب البشرية الوسواسي العام، وبأنه ينبثق، مثله مثل عصاب الطفل، عن عقدة أوديب، عن علاقات الطفل بالأب

اطلاقا من هذه التصورات، يمكننا أن نتوقع أن يتم العزوف عن الدين عبر سيرورة النمو المحتومة التي لا راد لها، كما يمكننا أن نحدس بأننا نمر في الساعة الراهنة بهذه المرحلة من التطور على وجه التحديد

8- يحق لنا أن نتوقع أن تنفيذ المشروع الأخير هذا لن يلاقي صعوبات كأداء. ص 56- 62

أفاد فرويد أنه، ممالا شك فيه أن الحضارة حرمت على الإنسان أن يقتل قريبه إذا أبغضه أو ضايقه أو طمع في أملاكه، حرصا منها على حياة البشر المشتركة التي كانت ستستحيل لولا ذلك التحريم. فالقاتل كان لابد، والحالة تلك، أن يجلب على نفسه انتقام أقارب ضحيته، والحسد الأصم من جانب الآخرين الذين يمور في نفوسهم ميل باطني مماثل إلى إتيان عمل العنف الذي أتاه. وما كان له في هذه الحال أن يستمتع طويلا بانتقامه أو بغنيمته، بل ستكون جميع الاحتمالات قائمة لتعرضه للقتل بدوره. وحتى على فرض أنه توصل إلى حماية نفسه، بفضل قوة وحذر خارقين، من خصم أعزل، فانه سيسقط صريعا ولابد حين يتحالف ويتآمر ضده عدد كبير من الخصوم ولو كانوا أضعف منه. وحتى على فرض أن هذه المؤامرة لم تحدث، فإن القتل سيعقب القتل إلى ما لا نهاية إلى أن يفني الناس بعضهم بعضا في خاتمة المطاف. ولما كانت مهمة دقيقة وحساسة هي مهمة الفصل والترجيح والاختيار بين ما يأمر به الله نفسه وما يصدر عن سلكة برلمان كلي القدرة أو قضاء أعلى، فسيكون من الأفضل بلا نقاش أو جدال أن ندع الله بعيدا عن المسألة كلها وأن نقر بصدق وصراحة بالأصل البشري البحث لجميع مؤسسات الثقافة وتعاليم الحضارة. وما أن يسقط عن هذه القوانين والشرائع ادعاؤها لنفسها منشأ مقدسا، حتى تتحرر كذلك من تشنجها وثباتها غير القابل للتبديل. عندئذ ستتوفر للناس المقدرة على أن يفهموا أن تلك القوانين والشرائع لم توجد للجمهم وكبحهم، بل لخيرهم وصالحهم، وسيقفون منها بالتالي موقفا أكثر ودا، وبدلا من التطلع إلى الغائها سيتطلعون إلى تحسينها فقط. ولو تم ذلك لكان بمثابة تقدم عظيم على الطريق التي تقود بني الإنسان إلى التآلف مع الضغط الذي تمارسه عليهم الحضارة.

نحن نعلم أن الطفل البشري لا يستطيع أن يكمل تطوره وارتقاءه نحو الحضارة من دون أن يمر بمرحلة عصابية مستفحلة بقدر أو بآخر. وهذا يتأتى من أن الطفل عاجز عن أن يقمع بعمل ذهني عقلي ذلك القدر الكبير من الدوافع الغريزية الكامن فيه، وهي دوافع لن تكون له بها حاجة فيما بعد بوصفه متمدنا ومتحضرا، وعليه من ثم أن يتغلب عليها ويقهرها بأفعال كبتية يختفي وراءها عادة باعث خوف. ومعظم ضروب العصاب الطفلي هذه تختفي تلقائيا حين يشب الطفل عن الطوق. وفي مقدورنا كذلك أن نفترض أن البشرية تمر بجملتها، أثناء تطورها وارتقائها، بحالات مشابهة للعصاب (وللأسباب ذاتها). فما كان للبشرية، في عصور الجهل والضعف الفكري التي مرت بها في البداية، أن تتخلى عن الغرائز بالمقدار الذي تستوجبه حياة البشر المشتركة إلا بفضل قوى وجدانية خالصة. وتلبث عصارة هذه المساعي والجهود، المشابهة للكبت، والتي جرت في عصور ما قبل التاريخ، تلبث على قيد الوجود لحقبة مديدة من الزمن بوصفها جزءا لا يتجزأ من الحضارة. هكذا يمكن القول بأن الدين هو عصاب البشرية الوسواسي العام، وبأنه ينبثق، مثله مثل عصاب الطفل، عن عقدة أوديب، عن علاقات الطفل بالأب. واطلاقا من هذه التصورات، يمكننا أن نتوقع أن يتم العزوف عن الدين عبر سيرورة النمو

المحتومة التي لا راد لها، كما يمكننا أن نحدس بأننا نمر في الساعة الراهنة بهذه المرحلة من التطور على وجه التحديد.إن الاعتراف بما لبعض المذاهب الدينية من قيمة تاريخية يزيد في مقدار الاحترام الذي نسلم به لها، لكنه لا ينال البتة من قيمة ما نفترضه من وجوب اقصائها واستبعادها عن تعليل الأحكام الثقافية والمقتضيات الحضارية. بل على العكس من ذلك تماما! فقد اتاحت لنا تلك النضالات التاريخية أن نعقل، إن جاز لنا التعبير، المعتقدات الدينية بوصفها مخلفات عصابية، ومن المباح لنا الآن أن نقول أنه قد دقت في أغلب الظن ساعة استبدال نتائج الكبت بنتائج العمل الذهني العقلي– تماما كما يحدث في المعالجة النفسية التحليلية للعصابيين. وفي مستطاعنا أن نتكهن بأن هذا التصحيح للفرائض الثقافية والحضارية لن يتوقف عند تجريدها مما تتسم به من عظمة وأبهة وقداسة، بل أن المراجعة العامة لهذه الفرائض لابد أن تؤدي إلى الغاء الكثير منها. وليس لنا أن ناسف على ذلك. فالمشكلة المطروحة علينا، مشكلة المؤالفة بين البشر والحضارة، ستجد في ذلك حلها إلى حد كبير.

إن الاعتراف بما لبعض المذاهب الدينية من قيمة تاريخية يزيد في مقدار الاحترام الذي نسلم به لها، لكنه لا ينال البتة من قيمة ما نفترضه من وجوب اقصائها واستبعادها عن تعليل الأحكام الثقافية والمقتضيات الحضارية

من المباح لنا الآن أن نقول أنه قد دقت في أغلب الظن ساعة استبدال نتائج الكبت بنتائج العمل الذهني العقلي– تماما كما يحدث في المعالجة النفسية التحليلية للعصابيين

9- أنك تبيح لنفسك تناقضات يصعب التوفيق بينها. ص 63- 69

أفاد المؤلف وهو يخاطب نفسه: "أنت تبدأ بالتصريح بأن نصا كنصك عديم الخطر بالمرة. فما من أحد سيسمح لمثل هذه الكتابات والمقالات أن تسلبه عقيدته الدينية. لكن لما كان في نيتك أيضا أن تشوش على الناس إيمانهم، كما يتضح ذلك فيما بعد، فمن حقنا أن نسألك: لماذا تنشر هذا الكتاب؟ ثم أنك تقر في موضع آخر بأنه من الخطر، بل من الخطر الشديد، أن يعلم إنسان من الناس بأن الإيمان بالله لم يعد قائما. فهو سيأبى مذ ذاك فصاعدا امتثالا لقوانين الحضارة بعد أن كان لها مطيعا منصاعا. وبالمقابل، نجد أن محاجتك تقوم برمتها، حين تقول أنه من الخطر على الحضارة أن تبنى تلك القوانين على معللات دينية، على الافتراض بأن المؤمن يمكن أن يصبح كافرا: والحال إن هذا تناقض مطلق". "لقد قلت أنت نفسك أن الدين هو أكثر من عصاب وسواسي. لكنك لم تعالج وجهه الآخر هذا. وقد كفاك أن بينت تشابهه مع العصاب. والعصاب لابد من تحرير الناس منه، ولكنك لا تهتم لما قد تخسره البشرية في الوقت نفسه بنتيجة ذلك". لقد بدا علي وكأنني اتخبط في تناقضات، وهذا بلا ريب لأنني عالجت بسرعة وعجلة أكبر مما ينبغي مادة معقدة. وفي ميسورنا أن نتدارك ذلك إلى حد ما. على أنني مازلت أصر على أن هذا النص غير مؤذ بالمرة من وجهة نظر معينة. فلن يسمح أي مؤمن لحجي أو لأي حجج مشابهة أن تشوش عليه إيمانه. فالمؤمن مرتبط بجوهر دينه بروابط عاطفية. بيد أن هناك عددا كبيرا من الناس غير مؤمنين بالمعنى الحرفي نفسه. فهم لا يمتثلون لقوانين الحضارة إلا لخوفهم من تهديدات الدين، وهم سيظلون يخشون الدين ما داموا يعتقدون أنه يؤلف جزءا من ذلك الواقع الذي يفرض عليهم تقييدات. وهؤلاء هم الذين يتخطون كل مانع ويحطمون كل قيد بمجرد أن يتجرؤوا على العدول عن الإيمان بحقيقة الدين، لكن ليست الحجج والبراهين العقلية هي التي تؤدي إلى هذا الانعطاف لديهم.

أفاد المؤلف وهو يخاطب نفسه: "أنت تبدأ بالتصريح بأن نصا كنصك عديم الخطر بالمرة. فما من أحد سيسمح لمثل هذه الكتابات والمقالات أن تسلبه عقيدته الدينية

لما كان في نيتك أيضا أن تشوش على الناس إيمانهم، كما يتضح ذلك فيما بعد، فمن حقنا أن نسألك: لماذا تنشر هذا الكتاب؟

مازلت أصر على أن هذا النص غير مؤذ بالمرة من وجهة نظر معينة. فلن يسمح أي مؤمن لحجي أو لأي حجج مشابهة أن تشوش عليه إيمانه

أعتقد أنه لابد أن يمر وقت طويل قبل أن يشرع طفل من الأطفال بالاهتمام بالله وبأمور الغيب إذا لم يجد من يحدثه عنها في وقت مبكر. وقد تسلك الأفكار التي سيكونها عن ذلك نفس الطرق التي سلكها أسلافه، لكننا لا ندع هذا التطور يتم من تلقاء نفسه، بل نفرض عليه المذاهب الدينية في سن لا تبيح له أن يعيرها اهتماما ولا تمكنه من استيعاب أهميتها. أ فليس البندان الرئيسيان في المناهج التربوية الحالية تأخير النمو الجنسي لدى الطفل وأخضاعه منذ نعومة

المؤمن مرتبط بجوهر دينه بروابط عاطفية. بيد أن هناك عددا كبيرا من الناس غير مؤمنين بالمعنى الحرفي نفسه. فهم لا يمتثلون لقوانين الحضارة إلا لخوفهم

أظفاره لسلطان الدين؟ فهل من العجب في هذا الحال أن تكون المذاهب الدينية قد أضحت بالنسبة إليه منيعة غير قابلة للطعن، يوم تتفتح لديه ملكة التفكير؟ وهل تعتقد على كل حال أنه في صالح تطور الوظيفة الفكرية أن يسلط سيف التهديد بعذابات جهنم للحيلولة بين الفكر وبين التطرق إلى مسألة لها مثل تلك الأهمية العظيمة؟ والحق أنه ليس لنا أن ندهش فوق الحد من الضعف الفكري لكل من يستطيع أن يقبل بلا نقد جميع الأباطيل التي تنطوي عليها المذاهب الدينية جميعا وأن يطبق عينيه إزاء ما تشتمل عليه من تناقضات. على أننا لا نملك وسيلة أخرى للسيطرة على غرائزنا غير عقلنا. إلا أنني سأخفف قليلا من حماستي وسأسلم بأنه من الجائز انني لا أسعى أنا نفسي إلا وراء وهم. ولعل مفعول النهي الديني عن التفكير ليس بالخطورة التي أصوره بها. ولعل الطبيعة الإنسانية ستبقى على ما هي عليه الآن حتى ولو لم تعد التربية منظمة على نحو يجبر الأطفال على الخضوع للنير الديني. لست أدري، وليس في ميسوركم أنتم أيضا ان تدروا. ففي أيامنا هذه لا تبدو مشكلات الحياة الكبرى هي وحدها غير قابلة للحل، بل يصعب أيضا البت في مسائل أوهى شأنا بكثير. أيضا من العبث الذي لا جدال فيه ان نتطلع إلى إلغاء الدين بالعنف على الفور ودفعة واحدة. فمثل هذا المشروع لن يكون له أولا أي حظ في النجاح. فلا الحجج ولا النواهي بقادرة على أن تجعل المؤمن يتخلى عن ايمانه. وحتى إذا كتب لنا الفلاح في ذلك، فلن نكون قد اتينا إلا عملا فظا. فمن اعتاد طوال عشرات السنين على تعاطي المنومات لن يذوق طعما للنوم إذا منعت عنه دفعة واحدة. ومفعول العزاء والسلوان الذي يقدمه الدين للإنسان يمكن المقايسة بينه وبين مفعول المنومات. وعليه، إنني اخالفك حين تتابع استدلالاتك فتقول إن الإنسان لا يسعه البتة أن يستغني عن العزاء الذي يقدمه له الوهم الديني، وأنه لولا هذا الوهم لما تحمل وطأة الحياة وقسوة الواقع. أجل، هذا صحيح بالنسبة إلى الإنسان الذي قطرت له منذ طفولته السم الحلو– أو المر. لكن أيصح ذلك بالنسبة إلى الإنسان الآخر، الإنسان المنشأ تنشئة رزينة رصين؟ ولعل من لا يشكو من أي عصاب البتة لا يحتاج إلى الثمل للتلطيف من وطأته. ولا شك في أن الإنسان سيتوصل، يوم يقطع رجاءه من عالم الغيب أو يوم يركز كل طاقاته المحررة على الحياة الأرضية، إلى أن يجعل الحياة قابلة للاحتمال من قبل الجميع، ولن تستحق الحضارة بعدئذ أحدا.

من تهديدات الدين، وهم سيظلون يخشون الدين ما داموا يعتقدون أنه يؤلف جزءا من ذلك الواقع الذي يفرض عليهم تقييدات

أعتقد أنه لابد أن يمر وقت طويل قبل أن يشرع طفل من الأطفال بالاهتمام بالله وبأمور الغيب إذا لم يجد من يحدثه عنها في وقت مبكر

أنني سأخفف قليلا من حماستي وسأسلم بأنه من الجائز انني لا أسعى أنا نفسي إلا وراء وهم. ولعل مفعول النهي الديني عن التفكير ليس بالخطورة التي أصوره بها

أيضا من العبث الذي لا جدال فيه ان نتطلع إلى إلغاء الدين بالعنف على الفور ودفعة واحدة. فمثل هذا المشروع لن يكون له أولا أي حظ في النجاح

لا الحجج ولا النواهي بقادرة على أن تجعل المؤمن يتخلى عن ايمانه. وحتى إذا كتب لنا الفلاح في ذلك، فلن نكون قد اتينا إلا عملا فظا

من اعتاد طوال عشرات السنين على تعاطي المنومات لن يذوق طعما للنوم إذا منعت عنه دفعة واحدة. ومفعول العزاء والسلوان الذي يقدمه الدين للإنسان يمكن المقايسة بينه وبين مفعول المنومات

يبدو رائعا، أن الإنسانية أقلعت عن كل وهم وصارت

10 - ألا كم يبدو ذلك رائعا! ص 70 - 77

صرح فرويد هنا، أنه يبدو رائعا، أن الإنسانية أقلعت عن كل وهم وصارت قادرة على أن تحقق لنفسها على الأرض حياة تطاق وتحتمل! بيد أنه لا يسعني، من جهتي، أن أشاطرك آمالك. لا لأنني ذلك الرجعي العتيد كما قد تتصورني، وإنما لان لدي حسا سليما. ويخيل إلي هنا إننا عكسنا أدوارنا: فأنت الآن الحالم الذي يحلق مع اوهامه، وأنا الذي يمثل متطلبات العقل والحق في الشك والارتياب. ويخيل إلي أيضا أن ما تعرضه مبني على أخطاء من حقي أن اطلق عليها، حاذيا حذوك، أسم أوهام: إذ أن أثر رغائبك الذاتية باد فيها ومفضوح. أنت تعلل نفسك بالأمل بأن الأجيال الآتية، التي لن تكون قد عانت في طفولتها من تأثير المذاهب الدينية، ستصل بسهولة ويسر إلى أولوية العقل المرامة على الحياة الغريزية. وهذا قطعا وهم؛ ففر الطبيعة البشرية في أن تتبدل وتتغير ضئيلة للغاية بصدد هذه النقطة الحاسمة.

وفي تصريح آخر، يقول فرويد: من يرغب في أن يطرد الدين من حظيرة حضارتنا الأوروبية، فلن يستطيع وصولا إلى مبتغاه إلا بمساعدة نظام مذهبي آخر، وسوف يتلبس هذا النظام من

البداية جميع سمات الدين السيكولوجية: القداسة، الصرامة، عدم التسامح وحظر إعمال الفكر، ذودا منه عن حياضه. وليس لك غنى عن شيء من هذا القبيل حتى تتمكن من مواجهة مقتضيات التربية. والحال أنك لا تستطيع أن تتخلى عن التربية. "إن هذه التحولات في المذهب الديني، التي أدنتها بوصفها انصاف حلول وتسويات، تتيح إمكانية تلافي الانشقاق بين الجماهير الأمية وبين الفلاسفة والمفكرين. فهي تنطوي على عنصر مشترك بين الطرفين، عنصر ذي أهمية قصوى في صيانة الحضارة والحفاظ عليها. ومن ثم لا يعود مبرر للخوف من أن يعلم ابن الشعب أن الإيمان بالله قد تلاشى في أوساط الطبقات الاجتماعية العليا. ويخيل إلي أنني أوضحت بذلك أن جهودك لا تعدو كونها محاولة لاستبدال وهم، دلل على نجعه وفاعليته وله قيمة عاطفية أكيدة، بوهم آخر لم يدلل بعد على ما دلل عليه سابقه ولا يمتلك قيمته".أني لأعلم مقدار صعوبة الإفلات من طوق الأوهام. ولعل الآمال، التي أقررت بأنني عللت بها نفسي، هي ذاتها من طبيعة وهمية. بيد أنني أقيم هنا تمييزا: فأوهامي– فضلا عن أن ما من قصا يتوعد من لا يتبناها– ليست، كالأوهام الدينية، مستحيلة التصحيح أو التقويم؛ فهي بريئة من كل سمة هذيانية. وإذا ما اثبتت التجربة– ليس لي وإنما لآخرين من بعدي قد يفكرون مثلي– اننا قد أخطأنا، فإننا سنتخلى عندئذ عن آمالنا. فمما لا شك فيه أن الزمن الذي ستقوم فيه أولوية العقل لا يزال نائيا عنا غاية النأي، لكن مما لا شك فيه أيضا أن المسافة التي تفصلنا عنه ليست بلامتناهية. ولما كانت أولوية العقل ستنشد في أرجح الظن نفس الأهداف التي يفترض في إلهكم أن يبلغكم إياها: الأخوة الإنسانية وتناقص الألم، فإن من حقنا أن نقول أن الخصومة بيننا مؤقتة ليس إلا، وأبعد ما تكون هن استحالة التذليل والتسوية. بيد أننا سننشدها ضمن الحدود البشرية وبقدر ما سيسمح بذلك الواقع الخارجي. وعليه، إننا نأمل الشيء نفسه، لكنكم أشد نفاذ صبر، وأكثر تطلبا وأنانية– لم لا نقول ذلك؟ –مني ومن أشباهي.

لعل التربية المنعتقة من نير المذاهب الدينية لن تغير كبير شيء في الماهية السيكولوجية للإنسان، ولعل إلهنا العقل ليس خارق القوة، ولعله لن يستطيع أن يفي إلا بالنزر اليسير مما وعد به أسلافه والمتقدمون عليه. وإذا توجب علينا أن نقر ذات يوم بذلك، فسنقر به بكل استسلام وانقياد. بيد أننا لن نقلع بسبب ذلك عن كل اهتمام بأمور الحياة والكون، لان لدينا نقطة ارتكاز قوية ليس لديكم نظيرها. إن للعلم أعداء سافرين كثرا، ولكن عدد اعدائه المتخفين أكبر بين أولئك الذين لا يستطيعون أن يغفروا له تجريده الايمان الديني من قوته وتهديده هذا الايمان بالدمار الشامل. ومما يأخذونه عليه أنه لم يعلمنا إلا النزر اليسير، وأنه ترك الظلام يغلف عددا أكبر بما لا يقاس من الأشياء. لكنهم ينسون، وهم يتكلمون بمثل هذا الكلام، صغر سن العلم وحداثته، وصعوبة حبوه وخطواته الأولى، وقصر الزمن اللامتناهي المتصرم منذ أن بلغ العقل الإنساني القوة الكافية لمواجهة المهام التي يطرحها عليه. ألا نرتكب جميعنا، مهما كنا، خطأ بناء أحكامنا على أساس فترات زمنية بالغة القصر؟ حري بنا أن نقتدي هنا بمثال علماء الجيولوجيا. فكثيرون يشتكون من لا يقينيةالعلم، ويتهمونه بأنه يستن اليوم قانونا يتبين الجيل التالي خطأه، فيستبدله بقانون جديد لن يكون بدوره أطول عمرا من سابقه. لكن هذه الاتهامات ظالمة، وخاطئة جزئيا. فتحول الآراء العلمية تطور، تقدم، وليس هدما. لكن من يزعم مثل هذا الزعم يتجاهل بعض عوامل لها أهميتها والحاسمة عند محاولة فهم العمل العلمي. فتعضيتنا أولا، أي جهازنا النفسي، قد تطورت بالتحديد من خلال سعيها إلى استكشاف العالم الخارجي، ثم كان عليها بعد ذلك أن تحقق في بنيتها بالذات درجة معينة من التكيف والتلاؤم. ثانيا، إن جهازنا النفسي يؤلف هوذاته

قادرة على أن تحقق لنفسها على الأرض حياة تطاق وتحتمل!

من يرغب في أن يطرد الدين من حظيرة حضارتنا الأوروبية، فلن يستطيع وصولا إلى مبتغاه إلا بمساعدة نظام مذهبي آخر، وسوف يتلبس هذا النظام من البداية جميع سمات الدين السيكولوجية: القداسة، الصرامة، عدم التسامح وحظر إعمال الفكر، ذودا منه عن حياضه

لعل الآمال، التي أقررت بأنني عللت بها نفسي، هي ذاتها من طبيعة وهمية. بيد أنني أقيم هنا تمييزا: فأوهامي– فضلا عن أن ما من قصا يتوعد من لا يتبناها– ليست، كالأوهام الدينية، مستحيلة التصحيح أو التقويم؛ فهي بريئة من كل سمة هذيانية

إذا ما اثبتت التجربة– ليس لي وإنما لآخرين من بعدي قد يفكرون مثلي– اننا قد أخطأنا، فإننا سنتخلى عندئذ عن آمالنا

أن الزمن الذي ستقوم فيه أولوية العقل لا يزال نائيا عنا غاية النأي، لكن مما لا شك فيه أيضا أن المسافة التي تفصلنا عنه ليست بلامتناهية

لعل التربية المنعتقة من نير المذاهب الدينية لن تغير كبير شيء في الماهية السيكولوجية للإنسان، ولعل إلهنا العقل ليس خارق القوة، ولعله لن يستطيع أن يفي إلا

بالنزر اليسير مما وعد به أسلافه والمتقدمون عليه

إن للعلم أعداء سافرين كثرا، ولكن عدد اعدائه المتخفين أكبر بين أولئك الذين لا يستطيعون أن يغفروا له تجريده الايمان الديني من قوته وتهديده هذا الايمان بالدمار الشامل

جزءا مكونا من ذلك الكون الذي علينا أن نستكشفه والذي يصلح فعلا لبحثنا وتنقيتنا فيه. ثالثا، إن مهمة العلم محددة تمام التحديد إذا قصرناها على افهامنا الكيفية التي ينبغي أن يتجلى بها العالم لنا بحكم الطابع الخا لتعضيتنا. رابعا، أن النتائج النهائية للعلم، بحكم الطريقة التي يتم بها الوصول إليها، ليست مشروطة بتعضيتنا وحدها، وإنما أيضا بما يؤثر على هذه التعضية. وأخيرا، إن مشكلة طبيعة الكون، إذا ما نظرنا إلى هذه الطبيعة بمعزل عن جهاز ادراكنا النفسي، هي تجريد فارغ، لا ينطوي على أي فائدة علمية. كلا، ليس علمنا وهما. وإنما الوهم أن نتصور أنه في وسعنا أن نجد لدى غيره ما لا يستطيع هو أن يقدمه لنا.

من المعلوم بمكان، أن كل مؤلفات العالم الجهبذ سيغموند فرويد تحتاج لجهد وأسلوب غير عادي عند قراءتها وتحليل ما بين سطورها لفهمها، واستيعاب مضامينها، وأغراضها الملهمة في سبر أغوار النفس البشرية، والشخصية. ومؤلفه هذا "مستقبل وهم" هدفه إلى تحرير العقل ودفعه إلى المنهج العلمي في فهم الظواهر الطبيعية والحضارات وحتى المذاهب الدينية المتوافرة. أوصي بقراءة هذا الكتاب، وقد تحتاج تكرار قراءته كما أعتقد أني فعلت ، لغرض تحقيق مثالية الفائدة والمتعة.

رابط كامل النص:
http://www.arabpsynet.com/Documents/BR169MaanAnIllusionFuture.pdf

****** ******* ******

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي
http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني
http://www.arabpsyfound.com

المجلة العربية " نفسانيات" (مجلة محكمة في علوم وطب النفس)

محاور ملفات الاعداد القادمة
http://www.arabpsynet.com/apn.journal/Nafssaniat-NextTopics.pdf

العدد القادم: 78 – صيف 2023

الملف: الادمان، مقاربة من منظور مختلف "

اشراف: حمدي فؤاد عبد اللطيف المصلحي

ترسل الاعمال بالتزامن الى بريد كل من المشرفة على العدد والى بريد الشبكة
hamdy.moselhy@hotmail.com - arabpsynet@gmail.com
أخر أجل لقبول المشاركة بالأعمال العلمية 15 سبتمبر 2023

مجلة " بصائر نفسانية" (مجلة المستجدات العربية في علوم وطب النفس)

محاور ملفات الاعداد القادمة
http://www.arabpsynet.com/apn.journal/Bassaaer-NextTopics.pdf

العدد القادم 43 – خريف 2023

الملف: " العلاجات النفسانية من منظور نظرية الطب النفسي التطوري الإيقاعحيوي" للاستاذ يحيى الرخاوي"

المشرفون على الملف:

د. وليد خالد عبد الحميد (الطب النفساني – العراق / انكلترا)

د. محمد يحيى الرخاوي (علم النفس – القاهرة، مصر)
wabdulhamid1@gmail.com - morakhawy@gmail.com - arabpsynet@Gmail.com
أخر أجل لقبول الاعمال (30 اكتوبر2023)